



obeikandi.com

الفصل الأول

الشريعة بين التعبد والتعليل

كل ما تقدم من تعريف وتوضيح حول مقاصد الشريعة ينبنى على أساس التسليم بكون الشريعة لها مقاصد وغايات ، وأن هذه المقاصد والغايات راجعة إلى مصالح العباد .

ومسألة بهذا الحجم وبهذا القدر من الأهمية لا ينبغي إطلاق القول فيها دونما تقديم ما يكافئها من الاستدلال والإثبات ، ويزداد هذا الأمر لزومًا إذا علمنا أن بعض العلماء ، وعددًا من الناس ، ينظرون إلى الشريعة على أنها لا غرض لها سوى التكليف والابتلاء وإثبات عبودية المكلفين لربهم ، مع ما يتبع ذلك - في الآخرة لا في الدنيا - من ثواب أو عقاب ، ومن جنة أو نار .

والحقيقة أن إثبات كون الشريعة معللة بمصالح العباد في الدنيا والآخرة معًا ، أمر لا يحتاج إلى عناء وكبير بحث ، فالآيات الصريحة القاطعة متضافرة على إفادة هذا المعنى

بشكل لا يبقى معه أدنى مجال للشك أو التردد .

فمن هذه الآيات قوله سبحانه مخاطباً آدم وزوجته وذريتهما : ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ عِبَادَتَهُ ۖ وَذُرُوا هَيْدَ اللَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۚ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤) .

فدلت الآية على أن ما ينزله الله لعباده إنما هو « هدى » وأنه جاء ليجنبهم الضلال والشقاوة ، ويدفع عنهم ضنك العيش وعمى الآخرة ، فالآية عامة في شأن الدنيا وشأن الآخرة ، ولا يحق لأحد قصرها على الآخرة إلا بدليل .

بل إن الآية مشيرة بنظمها إلى الدنيا والآخرة معاً ، فقد قابلت بين الضلال والشقاوة ، وبين ضنك العيش والعمى في الآخرة ، فهما معاً واردةان مقصودان .

ومن هذه الآيات أيضاً : قوله ﷺ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ۚ﴾ .

[الحديد: ٢٥]

فقد نصت هذه الآية على المقصد العام لبعثة الرسل جميعاً وما أرسله الله معهم من البينات والموازين ، فكل هذا إنما تم لأجل غاية جامعة هي أن يقوم الناس بالقسط ، والقسط في المفهوم الإسلامي يشمل كل شيء ، فالعلاقة بين الإنسان وربه يجب أن تقوم على القسط ، وكذلك علاقة الإنسان مع نفسه ومع غيره من الناس ومن الكائنات ، فكل شيء يصدر عن الإنسان يمكن أن يكون فيه قسط أو عدم قسط ، فجاءت الشريعة لتضع الموازين القسط لكل شيء ، وتأمّر الإنسان أن يلتزم القسط في كل شأن من شؤونه ، فليس القسط كما يتبادر إلى كثير من الأذهان قاصراً على الحكم بين الناس ، والتعامل فيما بينهم ، بل في الأكل والشرب قسط أو عدم قسط ، وفي النوم والراحة قسط أو عدم قسط ، وفي اللباس والزينة كذلك .

وفي الحديث : « لا يمشين أحدكم في نعل واحدة ، لئِنعلها جميعاً أو لئُخفها جميعاً » ^(١) .

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك في كتاب اللباس ، وهذا لفظ الموطأ .

فمن القسط التسوية بين القدمين إلا لعذر ، وقال الفقهاء : إن تجاوز القدر المحدد في الوضوء ظلم وإسراف .

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال لي النبي ﷺ : « ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ » ، قلت : إنني أفعل ذلك ، قال : « فإنك إذا فعلت ذلك هجمت ^(١) عينك ، ونفثت نفسك ^(٢) ، وإن لنفسك حقاً ، ولأهلك حقاً ، فصم وأفطر وقم ونم » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، بعد ذكره للمقصد العام من بعثة الرسل جميعاً ، ألا وهو القسط ، فيه تنبيه لا يخفى على أن مقاصد الخالق في خلقه أن يجلب لهم منافعهم الدنيوية ، ومن أعظمها - على مر التاريخ - منافع الحديد ، ومعلوم أنه باجتماع القسط مع منافع الحديد وقوته تقوم الدول

(١) قال الخطابي : « هجمت عينك معناه : غارت عينك وضعف بصرها » .

(٢) وقوله : « نفثت نفسك أي : أعييت وكلت ، والنافه المعبي » المرجع الآتي .

(٣) رواه البخاري ، أعلام السنن لأبي سليمان الخطابي (١ / ٣٩٠) .

والحضارات وتزدهر أحوال الشعوب والمجتمعات .

وفي خصوص بعثة خاتم النبیین ﷺ جاءت نصوص عدة تنص على مقاصدها بشكل صريح ، كما في قوله ﷻ :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

فهذه الآية كسابقتها ، تضمنت تعليلاً صريحاً قاطعاً للبعثة النبوية ، وهو أنها إنما جاءت لرحمة الناس ، والرحمة تشمل الدنيا والآخرة ، ولا دليل على حصرها في رحمة الآخرة ، بل الأدلة قائمة على أن رحمة الله تشمل الدنيا والآخرة ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

ومن صفات الرب سبحانه : « الرحمن الرحيم » ، وقد روي في معنى هاتين الصفتين « الرحمن : رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم : رحيم الآخرة » ^(١) .

وقال الخطابي : « الرحمن : ذو الرحمة الشاملة ، التي

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/٥٦) .

وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم» ^(١) .

وأصرح من هذا كله قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] .

فمن رحمة الله الغيث وما ينتج عنه من مصالح دنيوية ، وعلى هذا فالرحمة التي بعث بها خاتم النبيين ﷺ تشمل مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم .

مما جاء أيضًا في تعليل الرسالة المحمدية قوله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

[الجمعة: ٢]

وتزكية الناس وتعليمهم ، هي مصلحة دنيوية قبل أن تجني ثمراتها الأخروية ، والتزكية والتعليم كلمتان جامعتان لكل ما يحتاجه الناس من فضائل وخيرات وكل ما تتوقف عليه حياتهم من مصالح ، وفي هذا المعنى جاء قوله ﷺ

(١) عن صفوة التفاسير للصابوني (١/ ٢٥) .

معللاً تعليلاً جامعاً : « إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » ^(١) .

قال ابن عبد البر : « يدخل فيه الصلاح والخير كله ،
والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، فبذلك بعث
ليتممه » ^(٢) .

وهكذا يظهر جلياً أن الرسل جميعاً بعثوا لأجل هداية
الناس في دينهم ودنياهم ، ولأجل إرشادهم ومساعدتهم
لسلوك أقوم السبل وأسماها في حفظ مصالحهم ودرء
مفسادهم ، وليس هذا متنافياً مع مقصد التعبد الذي يعد
من أسمى وأهم ما جاءت به الشريعة ، ذلك أن كل صلاح
يتضمن نوعاً من التعبد ، وكل تعبد فيه أنواع من المصالح
الدنيوية والأخروية ، فليس هناك تضاد ولا تعارض بين
التعبد والتعليل .

تعليل العبادات :

يعتقد كثير من الناس أن التكاليف والأحكام الشرعية

(١) الموطأ - كتاب حسن الخلق .

(٢) نقله محمد فؤاد عبد الباقي ، هامش الموطأ (ص ٩٠٤) .

المندرجة في باب العبادات لا معنى لها ولا غرض منها سوى أداء حق الله تعالى بالتعبّد له سبحانه ، ثم ابتغاء ثواب الدار الآخرة .

وحتى إن القائلين من العلماء بتعليل الشريعة على وجه الإجمال ، يذهب كثير منهم إلى أن قسم العبادات منها غير قابل للتعليل ، أو أن التعليل فيه استثناء .

وهذا تصور غير سديد ، ويحتاج إلى المراجعة والتدقيق .
فأولاً : ما تقدم من نصوص قرآنية وحديثية في تعليل بعثة الرسل وشرائعهم تعم وتشمل أحكام العادات والمعاملات والعبادات على حد سواء ، كما تعم وتشمل مصالح الدنيا والآخرة على حد سواء ، والحق أنه ليس في الآخرة مصلحة إلا وهي امتداد وثمره لمصلحة تم إنجازها وتحقيقها في هذه الدنيا ، وكذلك المفسدة ، فالقول بوجود مصالح أخروية ، أو مفاصد أخروية لم يكن لها أصل وبداية وأثر في هذه الدنيا ، هو مجرد قصور في فهم مقاصد الشريعة

وإدراك مراميها .

وثانيًا : لأن « جميع » التكاليف الشرعية التي سميت عبادات ، قد جاءت في القرآن معللة - في أصولها وجملتها - تعليلات مصلحية دنيوية وأخروية ، من غير توفيق ولا استثناء .

ونبدأ بالصلاة أمُّ العبادات : قال الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

فها هنا عللت فريضة الصلاة بمصلحتين جامعتين عظيمتين ، وإحداهما أعظم من الأخرى :

المصلحة الأولى : هي كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يخفى على أحد أن النهي عن الفحشاء والمنكر ، والإبعاد عنهما ، والتخفيف منهما ، إنما هي مصالح فردية وجماعية في هذه الحياة الدنيا ، مصالح تعود على الناس بالنفع في أبدانهم وعقولهم وأموالهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية ،

ثم هي بعد ذلك ونتيجة له سبب لنيل ثواب الله تعالى في الدار الآخرة .

وأما المصلحة الثانية : التي عللت بها الصلاة في هذه الآية ، فهي ذكر الله ، الذي هو أكبر من مصلحة النهي عن الفحشاء والمنكر ، ولذلك جاء التعليل به وحده في آية أخرى ، هي قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ .

[طه: ١٤]

وقد يقال : إن ذكر الله مصلحة تعبدية أخروية خالصة ، وقد جعل هو المقصد الأعظم للصلاة ، فأقول : إن ذكر الله ﷻ من أعظم المصالح الدنيوية ، أو ليس أسمى ما يرغب الناس فيه في حياتهم ، ويبحثون عنه ليلهم ونهارهم هو السعادة .

وهل السعادة سوى الشعور بالارتياح والابتهاج والطمأنينة والمتعة ؟

إذا كان الأمر كذلك - وهو لا شك كذلك - فإن أعلى

درجات السعادة الدنيوية وأسمى مقاماتها ، هي تلك التي يتحصلها الذاكرون لله ، الخاشعون في كنفه ، يملؤهم اليقين ، ويغمرهم الرضا والطمأنينة : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] .

ثم إن هذه الحالة القلبية الروحية السامية يكون لها انعكاس شامل على صاحبها ، في بدنه ونفسه وفكره وسلوكه ، ومن انعكاساتها أنها تفضي إلى النهي عن الفحشاء والمنكر ، فتصير هذه المصلحة فرعاً عن الأخرى وثمره من ثمراتها .

فلذلك كله كانت مصلحة ذكر الله هي كبرى مصالح الصلاة ، واعتبرت المقصد الأول لها .

وأما الزكاة : فمصلحتها الدنيوية والتربوية والاجتماعية ، يدركها ويلمسها الخاصة والعامة ، وهي أوضح وأظهر من أن تحتاج إلى بيان واستدلال .

وأما الصوم : فقد وقع التنبيه على مصالحه في عدد من

نصوص القرآن والسنة ، منها قوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، فقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بيان لحكمة الصيام وما لأجله شرع ، والتقوى الشرعية هي إتقاء المعاصي ، فجعل الصيام وسيلة لالتقائها ؛ لأنه يعدل القوى الطبيعية التي هي داعية تلك المعاصي ، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني ، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية ^(١) .

وفي الحديث الصحيح : « الصيام جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم ، إني صائم » ^(٢) .

فالمقاصد التربوية للصيام واضحة جلية في ألفاظ

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٥٨) .

(٢) رواه مالك في موطئه البخاري ومسلم في صحيحهما .

الحديث وتوجيهاته ، إلا أن وصفه الصيام بكونه « جُنَّة » يحتاج إلى مزيد من التوضيح ، فقد اشتهر تفسير « الجُنَّة » - ومعناها اللغوي الوقاية وما يستعمل لها - بأن الصيام وقاية من النار ، وهذا صحيح إذا أريد به حصر وقاية الصيام في الوقاية من النار ، وأن هذا هو المعنى الوحيد لوصف « الجنة » ، فهذا ما لا تساعد عليه قواعد اللغة ولا شهادة الواقع .

يقول الإمام ابن عاشور : « حُذِفَ متعلق « جنة » لقصد التعميم ، أي : التكثير للمتعلقات الصالحة بالمقام ، فأفاد كلام الرسول عليه الصلاة والسلام أن الصوم وقاية من أضرار كثيرة ، فكل ضرر ثبت عندنا أن الصوم يدفعه فهو مراد من المتعلق المحذوف ... » ^(١) .

وقد أصبحت فوائد الصيام الصحية معلومة بالتجربة والدراسة لدى المسلمين وغير المسلمين .

(١) كشف المغطى من الألفاظ والمعاني الواقعة في الموطأ (١٧) .

وأما الحج : فهو منجم لما لا يحصى من المصالح الدينية والدينية .

فقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره ، فمن حيث العبادة : ففيه الصلاة والذكر والدعاء ، وفيه الإنفاق بأشكال متعددة ، وفيه الجهاد المالي والبدني ، وفيه كبح الشهوات وتهذيب العادات ، ومن حيث المصالح الدنيوية المباشرة ، ففيه فرصة نادرة للتبادل التجاري ، والتداول السياسي والاجتماعي ، وفيه ما في الأسفار والرحلات من التجارب والخبرات والتدريبات ، ومن إغناء للعقل والعلم والمعرفة .

وإلى هذا كله يشير قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿ [الحج: ٢٧، ٢٨] ، وتنكير « منافع » للتعظيم المراد منه الكثرة ، وهي المصالح الدينية والدينية ؛ لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس ^(١) .

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/٢٤٦) .

وإذا كان عموم المنافع في الآية لا ينكره أحد ، فإن أكثر المفسرين ركزوا خاصةً على ما نبهت عليه الآية من مشروعية ابتغاء المنافع الدنيوية في الحج ، وفي مقدمتها ممارسة الأعمال التجارية ، قال ابن عطية : « والمنافع في هذه الآية : التجارة ، في قول أكثر المتأولين ، ابن عباس وغيره » ^(١) .

وقد جاء التنصيص على مشروعية هذا القصد في الحج بشكل أكثر خصوصية وصراحة في هذه الآية : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، إلى قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

[البقرة: ١٩٨]

قال القرطبي : « ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج مع أداء العبادة ، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركاً ولا يخرج المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه » ^(٢) .

(١) المحرر الوجيز (١١/ ١٩٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤١٣) .

هذا عن التعليقات العامة لأصول العبادات ، أما عن التعليقات الجزئية لتفاصيل العبادات ، بما فيها من مواقيت زمانية ومكانية ، ومن مقادير وكيفيات وشروط ، فهذه يطول الكلام فيها ، ويصعب ، وأكثرها ليس فيه تنصيص على العلل والمقاصد ، ولكنني في هذه العجالة أسجل الملحوظات التالية :

١- الأحكام العامة والكلية تسري على جزئياتها ، ولا يكون الحكم الكلي صحيحاً إلا حين يصدق على جزئياته كلها أو معظمها على الأقل ، فإذا كانت العبادات معللة - في أصولها وعموميتها - بتعليلات مصلحة متعددة ومتنوعة ، دنيوية وأخروية ، فإن تفاصيلها وأحكامها الجزئية واقعة على هذا المنوال ، سواء ظهرت أو خفيت ، علّمت أو جهلت .

٢- كثير من الأحكام الجزئية التطبيقية قد لا تكون مقصودة لذاتها على وجه التحديد ، ولكنها ترمي إلى تحقيق الانضباط ، وسهولة التنفيذ للمكلفين ، ذلك أن التفصيل

والتحديد والضبط عناصر ضرورية لتنفيذ التكاليف والتشريعات ، وحتى القوانين الوضعية نجد ما لا يحصى من التحديدات الزمانية والمكانية والمالية التي رسمت وقدرت على نحو ليس له معنى في ذاته وبتهام حده ، ولكن التحديد - من حيث المبدأ - هو المقصود ؛ إذ به ينضبط الخلق ويتوحدون في تطبيق الأحكام ، على أن القصد التعبدي قائم ومعتبر في جميع الأحكام الشرعية ، سواء تعلقت بالعبادات أو غيرها ، وسواء في ذلك ما عقلنا معناه وما لم نعقله ، وهو مقصد يضيف على الأفعال ، وعلى الحياة المشكلة منها ، المعنى الحقيقي والمعقولة الحقيقية التي بدونها تصير الحياة أقرب إلى العبث والتهيه .

٣- وبالإضافة إلى ما جاء في الفقرتين السالفتين ، فإن عددًا من فطاحل الفقهاء المجتهدين يقتحمون مجال التعليقات التفصيلية للأحكام ، ويغوصون وراء أسرارها وحكمها ، وما ذلك إلا ليقينهم واطمئنانهم بأن وراء كل حكم حكمة ومصلحة ، وأنقل فيما يلي نموذجًا لذلك النظر

التعليلي والفقهاء المقاصدي الاستصلاحي .

يقول الإمام شهاب الدين القرافي ~ في باب التيمم من ذخيرته : « وهو من خصائص هذه الأمة لطفاً من الله تعالى بها وإحساناً إليها ، وليجمع لها في عبادتها بين التراب الذي هو مبدأ إيجادها والماء الذي هو سبب استمرار حياتها ، إشعاراً بأن هذه العبادة سبب الحياة الأبدية والسعادة السرمدية ، جعلنا الله تعالى من أهلها من غير محنة .

وأوجه لتحصيل مصالح أوقات الصلوات قبل فواتها ، ولولا ذلك لأمر عادم الماء بتأخير الصلاة حتى يجد الماء ، وهذا يدل على أن اهتمام الشرع بمصالح الأوقات أعظم من اهتمامه بمصالح الطهارة .

فإن قلت : فأى مصلحة في إيقاع الصلاة في وقتها دون ما قبله وبعده مع جزم العقل باستواء أفراد الأزمان ؟

قلت : اعتمد العلماء رضوان الله عليهم في ذلك على حرف واحد ، وهو : أننا استقرأنا عادة الله تعالى في شرعه ، فوجدناه جالباً للمصالح ودارئاً للمفاسد ، وكذلك قال ابن

عباس - { : إذا سمعت نداء الله تعالى فارفع رأسك ، فتجده إما يدعوك إلى خير أو يصرفك عن شر .

فمن ذلك إيجاب الزكوات والتفقات لسد الخلات ، وأروش الجنايات جبراً للمتلفات ، وتحريم القتل والزنى والمسكر والسرقه والقذف صوناً للنفوس والأنسب والعقول والأموال ، وإعراضاً عن المفسدات ، وغير ذلك من المصالح الدنيويات والأخرويات ، ونحن نعلم بالضرورة أن الملك إذا كان من عادته إكرام العلماء وإهانة الجهلاء ، ثم رأيناه خصص شخصاً بالإكرام ونحن لا نعرف حاله ، فإنه يغلب على ظننا أنه عالم ، على جريان العادة ، وكذلك ما تسميه الفقهاء بالتعبد : معناه أننا لا نطلع على حكمته وإن كنا نعتقد أن له حكمة ، وليس معناه أنه لا حكمة له « ^(١) .

الدعاء بين التعبد والتعليل :

معلوم أن الدعاء هو أحد أبرز المناسك والشعائر الدينية

(١) الذخيرة (١/ ٣٣٤ ، ٣٣٥) .

في جميع الديانات ، وهو من التكاليف الشرعية المصنفة بلا خلاف في باب العبادات ، بالإضافة إلى كونه حاضراً في سائر العبادات الأخرى ، بل إن النبي ﷺ يصرح أن : « الدعاء هو العبادة » ^(١) .

ولا شك أن المقصد الأسمى للدعاء هو كونه يحقق أعلى وأرقى درجات العبودية والعبادة لله سبحانه وتعالى ، ولذلك كان الدعاء مطلوباً في كل حين وعلى كل حال ، وكان مطلوباً بتذلل وتضرع ، وافتقار وعبودية : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] .

وجاءت الأدعية النبوية طافحة بروح الضراعة والإجلال للباري جل وعلا : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك » ^(٢) ، « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ^(٣) ، « أَلْظُؤَا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٤) ،

(١) رواه أبو داود ، والترمذي .

(٢) رواه البخاري ، والترمذي ، والنسائي .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) رواه الترمذي ، والنسائي .

« اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَمَنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ » ^(١) .

والمقصد الآخر من المقاصد الكبرى للدعاء ، هو قضاء الحاجات واستجلاب الخيرات ودفع الشرور والآفات ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢] .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١] ، وما جاء في الأحاديث الكثيرة من مثل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يقول : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي » ^(٢) ، وما رواه طارق بن أشيم رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم اغفر لي ،

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » .

(٢) رواه مسلم .

وارحمي ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » ^(١) .

المقاصد التربوية للدعاء :

وأعني بذلك : أن الدعاء في الإسلام قد جعل وسيلة للتوجيه التربوي والتأثير السلوكي العملي ، ولا شك أن الممارسين للتربية - من أساتذة ومعلمين ، ووعاظ ومرشدين ، وخطباء موجهين ، وعلماء مفتين ، ومن آباء وأمهات - لا شك أنهم كلما كانوا على بينة من الأبعاد والتأثيرات التربوية للدعاء ، كلما أمكنهم الاستفادة منه وتوظيفه فيما يرومونه ويضطلعون به من إصلاح وتهذيب وتزكية .

بل إن عموم الناس إذا بُهوا وتفطنوا لما تقتضيه أدعيتهم - والأدعية الماثورة خاصة - من لوازم وشروط وغايات ، فإنهم يصبحون أكثر تفاعلاً مع الدعاء ومغزاه العملي ، وفيما يلي نماذج للمضامين التربوية لبعض الأدعية المشروعة في القرآن والسنة .

(١) رواه مسلم .

١- المساعدة على الطاعة والامتنال :

ومن ذلك ما نبه عليه الإمام أبو بكر الطرطوشي ، حيث قال وهو يسرد فوائد الدعاء : « منها أن الدعاء إشغال الهمة بذكر الحق سبحانه وتعالى ، وذلك يوجب قيام الهيبة للحق ﷻ في القلوب والزيادات في الطاعات ، والانقطاع عن المعاصي » ^(١) ، ذلك أن من تعلق قلبه وفكره بربه داعياً مبتهلاً ، كان أقرب إلى طاعته والتجافي عن معصيته ، وهذا أمر واضح ومجرب ولا يحتاج إلى إثبات أو شرح .

ثم إن بعض الأدعية المأثورة تتضمن بالفاظها تذكير الداعي بطاعة الله وترغيبه فيها وتنفيره من العصيان ، مثل ما جاء في سيد الاستغفار : « وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ » ^(٢) ومثل ما جاء في الوصية النبوية : « أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني ذكرك وشكرك

(١) الدعاء المأثور وآدابه .

(٢) سبق تحريجه .

وحسن عبادتك» ^(١) ، ومثل دعائه ﷺ - يعلمنا - بقوله :
« اللهم مُصَرِّفَ القلوب صَرِّفْ قلوبنا على طاعتك » ^(٢) .

٢- توجيه العناية إلى الذات :

كثير من الناس حين يتوجهون بالدعاء إلى ربهم ،
يرفعون أكفهم وأبصارهم نحو الأعلى ، سائلين حاجاتهم ،
متعوذين من الشرور النازلة بهم ، تنصرف عقولهم
وأذهانهم عن ذواتهم ونفوسهم ، غافلين أو متغافلين عن
مسؤولياتهم فيما جرى وما يمكن أن يجري ، وأن الأمور
بأسبابها وشروطها ، ولذلك جاءت الأحاديث والأدعية
النبوية توجه عناية الداعين إلى ذواتهم وإلى مكان الداء في
أنفسهم ، حتى لا يكون الدعاء - الذي هو تعلق بقدرة الله
وإرادته - صارفاً عن الشعور بواجبهم وبدورهم وبتبعات
صفاتهم وتصرفاتهم ، فعن شُكْل بن حميد رضي الله عنه ، قال : قلت :

(١) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » ، وانظر : تخریجات محققة ،
د/ فاروق حمادة .

(٢) رواه مسلم .

يا رسول الله ، علمني دعاء ، قال : « قل : اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ، ومن شر قلبي ، ومن مَنِّي » ^(١) .

فالحديث يحملنا على الالتفات والتفكير في الشرور التي تقع فيها ، أو يمكن أن تقع فيها أسماعنا وأبصارنا وألستنا وقلوبنا وفروجنا ، وغير ذلك من أعضائنا وأدوات تصرفنا ، وقريب منه ما رواه زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول ، كان يقول : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، إنك وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » ^(٢) ، وفي الحديث : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي

(١) رواه أبو داود ، والترمذي .

(٢) رواه مسلم .

بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟! » ^(١) ، وفي الحديث الآخر :
« يا سعد أَطْبُ مطعمك تُحِبُّ دعوتك » .

وهكذا يُتخذ من الدعاء سبب ووسيلة لحمل الناس على التفكير في نفوسهم وتصرفاتهم وأحوالهم ومسؤولياتهم في ذلك كله .

ومن مثل هذه الأدعية والأحاديث استخلص الواعظ الزاهد إبراهيم بن أدهم ~ كلمته الجامعة ، حين قالوا له :
ما لنا ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ فقال : « لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ، بل وافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم موتاكم فلم تعتبروا بهم ، وتركتكم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس » ^(٢) .

(١) رواه مسلم .

(٢) الدعاء المأثور للطرطوشي (١٢٥، ١٢٦) .

٣- التنفير من الآفات :

وهذا امتداد لما جاء في النقطة السابقة وفرع له : فهو من قبيل عطف الخاص على العام ، وأعني بذلك أن الأدعية النبوية كانت تركز على التشجيع والتنفير من آفات معينة .
يكثر اتصاف الناس بها ووقوعهم في أسرها ، من ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال : كنت أخدم النبي ﷺ ، فكنت أسمعه يكثر أن يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلع الدين وغلبة الرجال » ^(١) .

وهذه الآفات كلها تجتمع في كونها تدفع إلى الشلل في الإرادة والمبادرة والفعل ، وتجعل المتصف بها كلاً لا يقدر على شيء ، فجاء الدعاء النبوي يحمل جرعات من التحذير والتنفير من هذه الآفات ، ويجعل من هذه الجرعات زاداً ودواءً يومياً ، وإذا كان رسول الله ﷺ « يكثر » من التعوذ من هذه الآفات ، وهو أبرأ الناس منها وأبعدهم عنها ،

(١) متفق عليه .

فكيف بمن دونه ، وكل الناس دونه ؟!

إن من شأن المداومة على هذا الدعاء مع تدبر معانيه واستيعاب مرامييه ، أن يحدث في النفس نفورًا واشمئزازًا من هذه الآفات المستعاذ منها ، وهذا الاشمئزاز والنفور يدفع إلى اتقائها وتجنب أسبابها ومقاومة مظاهرها وآثارها .
وغير خافٍ على أحد أن هذه الآفات هي من أكثر الآفات انتشارًا وتنغيصًا للحياة الفردية والاجتماعية للناس : فهي مصدر الاكتئاب والانهمام ، ومصدر الضعف والتخاذل ، ومصدر الغش والتقاعس ، ومصدر التدهور والانحطاط في المعنويات الخلقية يوضح ذلك - أو بعضه - بيان رسول الله ﷺ حين قيل له : ما أكثر ما تستعيز من المغرم !! فقال : « إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ، ووعد فأخلف » ^(١) .

٤. تمتين الأخوة الإسلامية :

هناك أدعية كثيرة في القرآن والسنة ترمي إلى بث روح

(١) متفق عليه .

الأخوة والمحبة بين المسلمين ، وتعمل من خلال تكرارها
والداومة عليها - إلى جعل تلك الأخوة والمحبة في حالة
توهج وتجدد مستمرين ، وتحرك بين المؤمنين عواطف
الرحمة والشفقة والتناصر والتآزر ، وفيما يلي نماذج من تلك
الأدعية التي لا يسع مسلماً أن يخلو من نصيبه منها ، قلَّ أو
كَثُرَ :

فمن القرآن الكريم :

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ
آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ .

[إبراهيم: ٤١]

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨] .

ومعلوم أن الدعاء الذي يتكرر في سورة الفاتحة مرات ومرات في كل يوم وليلة قد جاء بصيغة الجماعة : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] ؛ ليكون الشعور بالانتماء وما يقتضيه هذا الانتماء من طلب جماعي وسعي جماعي للهداية والتمسك بصراطها المستقيم ، حيًّا متجددًا في نفس كل مسلم .

ومن السنة :

نبدأ من حيث انتهينا ، من أدعية الصلاة التي يكررها المسلم يوميًا مرات ومرات بصورة جماعية وإلزامية .

ففي دعاء التشهد : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ، فالمصلي يدعو بالسلام والسلامة والأمان والنجاة لكل من عباد الله الصالحين ، ومن روائع التأملات ودقائق الاستنباطات ، ما حكاه تاج الدين السبكي عن والده علي بن عبد الكافي من أنه سمعه يقول : لكل مسلم عندي وعند كل مسلم حق في أداء الصلوات الخمس ،

ومتى فرط مسلم في صلاة واحدة كان قد اعتدى على مسلم وأخذ له حقاً من حقوقه ؛ لأن المصلي يقول : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ، والنبي ﷺ يقول : « إن المصلي إذا قال هذا أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض ... » ^(١) .

ومن هذا الباب صلاة الجنائزة ، التي هي في جوهرها ومقصدها الأول دعاء للميت ، غير أن الدعاء المسنون لهذه الصلاة التي تحميم عليها الرهبة والخشوع ، لم يقتصر على الدعاء للميت وحده ، وإنما امتد ليشمل كل مسلم ، على غرار دعاء التشهد : « اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، اللهم من أحييته منه فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان » ^(٢) .

وترغيباً في استحضر المؤمنين لإخوانه وتشجيعاً على

(١) معيد النعم ومبيد النقم (١٤٩ ، ١٥٩) .

(٢) رواه الترمذي ، وأبو داود .

ذكرهم وتجديد عهدهم والدعاء لهم ، جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » ^(١) .

٥. الحث على العمل :

كثير من الناس يتصورون أن الدعاء يقوم مقام العمل ويغني عنه ، وهذا اعتقاد فاسد لا أصل له في الشرع ، أما التعبد الصحيح بالدعاء ، فهو الذي يكون مسبقاً بالعمل ، ومصحوباً بالعمل وملحوقاً بالعمل ، والتعبد الصحيح بالدعاء هو الذي يعتبر الدعاء شكلاً من أشكال العمل ، وضرباً من ضروب التسبب ، مثلما يعتبر العمل والتسبب ضرباً من ضروب الدعاء لله تعالى ، فنحن حين نتخذ الأسباب إنما ندعو الله الفاعل الحقيقي أن يستجيب لما قصدناه وابتغيناه بتلك الأسباب وبذلك السعي ، فلا يصح تعطيل العمل بالدعاء كما لا يصح تعطيل الدعاء بالعمل ، فلا يغني أحدهما عن الآخر ، والنموذج التفصيلي الأرفع

(١) رواه مسلم .

والأتم هو رسول الله ﷺ بكل سيرته وسنته وحالته ، وهذه لقطة من ذلك :

بعدما أمعنت قريش في العناد ورفض الهدى الذي دعاها إليه رسول الله ﷺ ، وأمعنت في حربه والكيد له والتأليب ضده ، خرج النبي ﷺ ماشياً على قدميه إلى الطائف ، وكان ذلك في صيف السنة العاشرة من البعثة المحمدية ، كما في الطريق إليها دعا رسول الله إلى ما بعثه الله به واجتهد وجاهد في سبيل ذلك ، ومكث في الطائف عشرة أيام يتصل ويدعو ويشرح ، وهو لا يلقي في ذلك إلا أسوأ مما تركه في قريش ، فلما قفل راجعاً بعد معاناة شديدة قاسية ، توجه إلى ربه بهذا الدعاء العظيم :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له

الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فهو ﷺ إنما لجأ إلى هذا الدعاء بعد عشرة أيام من الكدح والبذل والمعاناة ، وهو يعرب عن ضعفه وقلة حيلته بعد أن أبلى بلاء الأقوياء ودبر تدبير الحكماء ، وهو يفوض كامل الحول والقوة إلى الله ، بعد أن بذل كل ما في حوله واستطاعته ، وبعد تصميمه على المضي في ذلك .

وشبيه بهذا الموقف ما روته عائشة > أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا قَسَمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » ^(١) ، فهو يبذل جهده ويستنفذ قدرته فيما يستطيعه ، ثم يدعو الله أن يعفو عنه فيما لم تبلغه طاقته .

وفي قصة الثلاثة أصحاب الغار - وهي في الصحيحين - ما يشير إلى ضرورة الجمع بين الدعاء والعمل الصالح

(١) قال في « نيل الأوطار » : رواه الخمسة إلا أحمد .

والتوسل بهما مقترنين ، فقد جاء في أول هذه القصة عن رسول الله ﷺ قال : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم » .

وحين شرع الإسلام للناس صلاة الاستسقاء التي هي دعاء لله أن ينزل غيثه ورحمته عند الجذب وانحباس المطر ، حين شرع لهم هذا الدعاء المخصوص ، سن لهم قبله ومعه أعمالاً : من التوبة ، والخروج ، والتجمع ، والصلاة ، والوعظ ، وإظهار الرغبة في إصلاح الحالة الفاسدة ، فعند ذلك يحصل الاستسقاء المشروع وتحصل ثمرته المطلوبة ، وليس هو ما يفعله الكسالى الغافلون ، من الدعاء البارد المقترن بالخمول والقعود واللامبالاة وبقاء ما كان على ما كان .

قال الشيخ المصلح الفقيه أبو بكر الطرطوشي ~ ، وهو يتحدث عن آداب الدعاء : « ومن آدابه أن تقدّم بين

يُدي الدعاء عملاً صالحاً من صلاة وصدقة ونحوها ، كما شرع لنا في الاستسقاء ، أن يؤمر الناس قبله بالصلاة والصيام والصدقة والأعمال الزاكية ، ثم يخرجون للاستسقاء ، وهذه سيرة السلف الصالح ، قال عبد الله بن عمر : إذا أردت أن تدعو فقدم صدقة أو صلاة أو خيراً ، ثم ادع بما شئت ^(١) .

وقد استدلل الطرطوشي في موضع آخر بقوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ، قال : « دلت الآية بظاهرها أنه إذا لم يقترن بالدعاء عمل لم يستجب » .

ومن خلال الدعاء وآدابه يعلمنا النبي ﷺ المشاورة والإلحاح في العمل وفي الحرص على ما نريد ، وعدم الاستعجال المفضي إلى التخلي واليأس ، ففي حديث الصحيحين : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول :

(١) الدعاء المأثور (٥٩) .

دعوت ربي فلم يستجب لي » ، وفي رواية لمسلم : « يقول :
قد دعوت وقد دعوت ، فلم أرَ يستجب لي فيستحسر عند
ذلك ويدع الدعاء » ^(١) .

فإذا كان بعض الناس لا يصبرون على العمل ومتطلباته
وسننه ، ويلجؤون إلى الدعاء تاركين العمل ومتاعبه وبطء
نتائجه ؛ فإن النبي ﷺ يعلمهم أن الدعاء نفسه يتطلب
الصبر والمثابرة والتأني في الأمور وعدم الضجر واليأس
والانصراف ، وأن الله تعالى لا يستجيب للقلقين العجلين ،
سواء في أدعيتهم أو في أعمالهم .

وهكذا يظهر جلياً أن عليّة أحكام الشريعة أمر مطرد في
كافة المجالات وكافة التكاليف والأحكام ، وأن هذا
الاطراد حاصل حتى في العبادات فضلاً عن أحكام
المعاملات والعبادات كما يظهر بجلاء أيضاً أن أحكام
الشريعة تراعي في آن واحد مصالح الدنيا ومصالح الآخرة ،

(١) الدعاء المأثور : (١٢٢) .

فما من حكم شرعي أو تكليف شرعي إلا وهو متضمّن لهما
معًا ومعلّل بهما معًا .



الرسول يعلل الأحكام

ولمزيد من تجلية القضية ولاستكمال عناصرها ، أعرض في هذه الفقرة نماذج من التعليقات النبوية لبعض الأحكام الشرعية ، وقد جاءت تعليقات النبي ﷺ على ضربين :

١- تعليقات صدرت منه ابتدائياً وتلقائياً من غير سؤال ولا استشكال .

٢- تعليقات جاءت بياناً وجواباً عما كان يديه بعض الصحابة من استفسارات واستشكالات .

فمن النوع الأول :

١- قوله ﷺ : « إذا قام أحدكم من نومه فليغسل يديه قبل أن يدخلها في الإناء ثلاثاً » ، ثم علل ذلك بقوله : « فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده » ^(١) ، بمعنى أن النائم قد يمس بيده مواضع متسخة أو متنجسة ، فلا يليق أن يدخلها

(١) الحديث في الكتب الستة وغيرها .

في الإناء قبل تطهيرها .

٢- قوله : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف » ، حيث
علل ذلك بقوله : « فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة » ،
ثم نبه على دوران الحكم مع علته وجوداً وعدمًا فقال :
« وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء » ^(١) .

وواضح في الحديث حرص الشارع على الجمع بين
مصالح الأبدان ومصالح الأديان وسائر حاجات الإنسان .
٣- حديث المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال له
النبي ﷺ : « انظر إليها » ، ثم أضاف مبيناً حكمة ذلك
ومصلحته : « فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » ^(٢) .

٤- بيانه ﷺ لحكمة النهي عن ادخار لحوم الأضاحي
فوق ثلاثة أيام ، حيث قال معللاً ذلك ومبيناً أن الحكم
مشروط بعلمته وزائل بزوالها : « كنت نهيتكم عن لحوم

(١) الحديث في الكتب الستة وغيرها .

(٢) رواه الخمسة إلا أبا داود ، انظر : نيل الأوطار ٦ / ١١٠ .

الأصاحي فوق ثلاثة ليتسع ذوو الطول على من لا طول له ،
فكلوا ما بدا لكم وأطعموا وادخروا» ^(١) .

وفي رواية متفق عليها : « إنما نهيتكم من أجل الدافة » .

٥- حين منع النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص من أن
يوصي في سبيل الله بثُلثي ماله أو نصفه ، وجعل الثلث هو
الحد الأقصى للوصية ، علل ذلك بقوله : « إنك إن تَدَرَ
ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » ^(٢) .

ومن النوع الثاني :

١- حين قال النبي ﷺ : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما
فالقَاتِل والمَقْتُول في النار » ، استشكل بعض الصحابة كيف
أن المقتول أيضًا يدخل النار مع قاتله ، فيستوي القاتل
والمقتول ، فقالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال
المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » ^(٣) .

(١) رواه مسلم ، وأحمد ، والترمذي .

(٢) رواه الجماعة ، نيل الأوطار (٦ / ١٧٥) .

(٣) صحيح مسلم ، شرح النووي (١٨ / ١٠ ، ١١) .

فقد نبه النبي الله ﷺ أن علة استوائهما في المآل والعقاب هي أنهما استويا في القصد الإجرامي وإرادة القتل ، كما استويا في بذل كل المستطاع لتنفيذ الجريمة ، وكل ما في الأمر أن القاتل سبق خصمه فحال بينه وبين إتمام جريمته ، لكنه بقي « حريصًا » عليها إلى آخر لحظة من حياته ، فالفرق بينهما غير معتبر في المآل الأخروي ما دام أن الله تعالى عليم بما في الصدور .

٢- وفي إحدى صلوات العيد ، خطب النبي ﷺ الخطبة المعهودة ، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن ، فقال : « تصدقن فإن أكثر كن حطب جهنم » ، فقامت امرأة من سِطة النساء ، سعاء الخدين فقالت : لم يا رسول الله ؟ فقال : « لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير » فجعلن يتصدقن من حليهن ^(١) .

ومعلوم أن الصفتين المعلل بهما من أكثر الأسباب إفسادًا للعلاقات الزوجية والكيانات الأسرية ، والأسرة ركن من

(١) صحيح مسلم ، شرح النووي (٦ / ١٧٥) .

أركان الحياة الإسلامية ، فالحياة الزوجية - المعول عليها في تحقيق عدد من كبريات مقاصد الشريعة - لا يمكن أن تقوم وتدوم إذا خيمت عليها الشكوى والتذمر والتبرم والاشتغال بالعيوب والهفوات ، من غير نظر إلى المحاسن والمكاسب والمحامد .

٣- وقد تقدم قريباً - في موضوع الدعاء - أن النبي ﷺ سئل عن كثرة استعاذته من المأثم والمغرم ، فأجاب مبيناً كيف أن المغرم « الدّين » يفضي إلى المأثم ، بل إلى كبائر الإثم كالكذب وإخلاف الوعود .

٤- لما أخبر ﷺ أن الجماع المشروع بين الزوجين يعد عند الله نوعاً من الصدقة والعمل الصالح ، تعجب الصحابة من ذلك وقالوا : يا رسول الله ، يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » ^(١) ، فإذا كان تصريح الشهوة في الحرام مفسدة وفيها ما يناسبها من

(١) جزء من حديث متفق عليه .

الإثم ، كما نص عليه القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] ، فإن تصريحها في الحلال مصلحة وفيها ما يناسبها من الأجر ، فصد المفسدة مصلحة ، وحكم المصلحة وجزاؤها لا بد أن يكون ضد حكم المفسدة وجزائها : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] .

فهكذا كان « محمد والذين معه » ، يعلل لهم كثيراً من الأحكام الشرعية بصفة تلقائية ، انطلاقاً من كون الشريعة في أساسها وفي جملتها إنما هي لمصالح العباد عاجلها وآجلها ، فإذا سكت عن التعليل وأشكل عليهم شيء أو جال في أنفسهم استفهام ، لم يترددوا في عرضه على الرسول الأكرم ﷺ ، ولم يتردد هو في التفسير والبيان .

يقول الإمام ابن القيم ~ : « والقرآن وسنة رسول الله ﷺ مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح وتعليل الخلق بهما والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك

الأحكام ولأجلها خلق تلك الأعيان ، ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها ، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة » ^(١) .



(١) مفتاح دار السعادة (٢٢) .